كلمة آل الفقيد
يلقيها نجْلُه الأستاذ فداء محفِّل

بادئ ذي بدء أتقدم بالتعزية والشكر الجزيل للسيد الرئيس الدكتور بشار الأسد على رعايته وعنايته بوالدي في حياته، ودعمه وتعزيته لنا في وفاته، ولكل الجهات الرسمية والعلمية ومن أرسل برقيات تعزية أو حضر شخصيًا، ولكل من ألقى كلمات قبل كلمتي مع حفظ الألقاب للجميع...
عندما يأتي المرء ليتحدث أو يكتب عن شخص عظيم يشعر بشيء من الرهبة والقداسة خشيةَ ألّا تسعفه عباراته، أو تخذله المفردات والكلمات لمجرد التفكير به وبعظمته؛ فكيف إذا كان ذاك الشخص المتوفّى هو والدي، وفي الوقت نفسه هو **محمد محفّل** باسمه الكبير وعظمة قَدْره، وسيرته العطرة التي نشأتُ وترعرعتُ عليها أنا وعائلتي، ومع مرور الوقت كبُرَت مسؤولية الاسم فينا شيئًا فشيئًا حتى أصبحنا أينما ذهبنا نُسأل: ما صلة القربى بينكم وبين الأستاذ الجامعي والمفكر الكبير الدكتور محمد محفل؟ وبالنسبة لي شخصيًا وبحكم دراستي الجامعية (قسم الآثار) كنت أشعر بالفخر الشديد عندما أجيبهم أنه أبي؛ فعندما يترعرع المرء في كنفِ أبٍ يشهد له الصغيرُ قبل الكبير، والقاصي قبل الدّاني بعلمه وأخلاقه وإنسانيته، يشعر أنه إزاءَ هِبةٌ من هبات الله عز وجل، ومرتبةٍ يتمنّاها الكثيرون وقد خصنا الله بها (نحن عائلته).
كان رحمه الله يجمع بين عزّة نفس كبيرة وتواضع عجيبين، وما كنا نلمسه منه نحن عائلته كأبٍ حنون عطوف، ذي قلب كبير، وما نراه من الناس عندما نكون معه من إجلال واحترام وحتى من مهابة كبيرة، يجعلك وأنت صغير في حيرة أحيانًا.
ولكن مع مرور الزمن تُفْهَم هذه المعادلة شيئًا فشيئًا، لقد زرع فينا الكبرياء والمحبة والتواضع والعلم؛ إذ كانت حكمته الأخلاق قبل العلم، وأنه يجب على الإنسان أن يرتقي خُلُقًا وينحني تواضعًا كلما ازداد علمًا ومعرفةً، فكان رحمه الله خيرَ مثل لإنسان ثريّ بعلمه، غنيّ بأخلاقه، كبيرٍ بتواضعه.
كان أبًا قبل أن يكون معلماً، ليس لعائلته فقط بل لجميع من عايشه وعاشره وتلمذ عنده، و قيلت لي كثيرًا عبارةُ (لا تظنَّ أن محمد محفل أبٌ لكم وحدَكم بل كان خير الأب والأستاذ لنا جميعًا) ومنهم أساتذتي وطلابه في جامعة دمشق.
ومما لا شك فيه أننا فقدنا ثروة علمية وإنسانية كبيرة، وأن الفراغ الذي خلّفه بعد رحيله -رحمه الله- كبير جدًا، ولكن ما يعزّينا أنه ترك لنا ولأجيال من بعدنا إرثًا ثقافياً ولغوياً وإنسانياً كبيراً، وثمة آلاف من الطلاب الذين تلمذوا له، ومن بينهم نحن أولاده وعائلته.
لقد دمغ بصمةً على جبين التاريخ لن تمحى، بل على العكس، علينا أن ننميها لتصبح نهجًا لأجيال متنوِّرة العقل مبادِئُها الأخلاق والفضيلة والعلم وما أحوجنا إليها الآن.
وبنظرة سريعة في مسيرة حياته نجد أنه وُلد وتربّى في حي اسمه زقاق الأربعين في مدينة حلب؛ حيّ له تركيبة ديموغرافية ودينية فريدة تختصر تركيبة بلدنا الحبيب سورية، مما أعطاه منذ صغره عقلاً منفتحاً يتقبل الآخر دائمًا. ثم انتقاله إلى دمشق، وبعدها استقراره خمسة عشر عامًا في بلاد المهجر واطلاعه ودراسته لثقافات الغرب والعرب وإتقانه أكثر من لغة، رسّخ نهجه في الحياة، وأعطاه نظرة بانورامية وديناميكية فريدة في التفكير والتعامل أثناء حياته ومسيرته العلمية.

كان لحلبَ وَقْع خاص في قلبه، وعلى الرغم من محبته لدمشق ولكامل تراب وطنه؛ فقد كان يترنّم وتلمع عيناه ببريقٍ فريد عندما تحدثه أو يتحدث عن مدينة حلب، وتنفرج أساريره عندما ينادونه بـ (المؤرخ الحلبي).

من المفارقات الغريبة أثناء التعزية بأبي -رحمه الله- أننا كنا نرى طلابه بأعمار الستين والسبعين ويجلس بجانبهم طلابه بأعمار العشرين والثلاثين.

وداعًا يا والدي، أحببتَ تراب سورية فأحبك وتغمدك في ثراه.

رحمة الله عليك يا أبا الفداء...

والسلام عليكم ورحمة الله.

دمشق في ٢٠١٩/٢/١٣